إبل الحرب سام

لما أمعنت الولايات المتحدة الأميركية في التبسط غرباً الى ما وراء المسيسبي ، أخذ بعض المفكرين وأصحاب المصالح فيها يهتمون بتسهيل سبل المواصلات بين الولايات الشرقية والبلاد المفتوحة جديداً . وزاد هذا الاهتمام على أثر الحرب المكسيكية التي انتهت سنة ١٨٤٨ اذ غنمت الولايات المتحدة البلاد التي تشغلها الآن ولايات اريزونا ونيفادا ويوتاه ونيو مكسيكو وكاليفورنيا وأقسام من ولايتي ويومنغ وكلورادو .

ولم تكن السكك الحديدية مدّت الى الجبال الصخرية [1] بل كان الاعتماد في النقل والانتقال على العربات والخيل والبغال أو على السفن تدور حول أميركا الجنوبية بطريق مضيق مجلان . واهتمت وزارة الحربية كثيراً بأمر المواصلات في هذه البلاد الجديدة لأنها أقامت كثيراً من الحاميات العسكرية لتأمين المهاجرين الذين تقاطروا لاحتلاط الأراضي الزراعية أو للبحث عن الذهب الذي اكتشف في كاليفورنيا سنة ١٨٤٨ . فزادت نفقات الحكومة كثيراً لكثرة الحاميات وتفرقها وصعوبة نقل مؤنها ومعداتها .

وقام أناس يشيرون باستيراد الابل والاعتماد عليها بدلاً من الخيل والبغال لأن البوادي تكثر في هذه البلاد الجديدة كما تكثر في البلاد العربية وشمال افريقية فلا شك ان الجمل يصلح بها .

وتألفت في نيويورك شركة لاستيراد الجمال والراجح عندي انها وقفت دون اتمام العمل ولم تستورد شيئاً . وقيل ان الاسبانيين جربوا الجمال في بيرو فوجدوا الباما llama أصلح منها في تلك البلاد . وجلب أحد الجلابين بعض الجمال الى فرجينيا حوالي سنة ١٧٠١ وجربها بعضهم في جامايكا فلم تأت هذه المساعي كلها بفائدة .

ولما تولى جفرسن دايفس [2] وزارة الحربية الأميركية رأى أن يستورد بعض الابل

(١) يعني السكة الحديدية التي وصلت الباسفيكي بالاتلنتيكي أولا سنة ١٨٦٩ .

(٢) هو الذي تولى بعد ذلك رئاسة الولايات الجنوبية التي خرجت عن الاتحاد الاميركي في الحرب الاهلية الاميركية

فوافقه الكونغرس وخصص في ٣ من مارس سنة ١٨٥٥ ثلاثين الف دولار لهذا الغرض. وانتدب لمهمة ضابطين من البحرية هنري واين Wayne والملازم «دايفد بورتر» Porter. فتولى «واين» أمر شراء الجمال وما يلزمها وتولى «بورتر» أمر السفينة التي خصصت لنقلها.

النصب التذكاري لابل العم سام

وسافر واين الى أوربة لجمع المعلومات عن الجمال ثم وافاه بورتر بالسفينة فتوجها الى تونس حيث اشترى «واين» جملا وأهداه الباي جملين. وأتيا الاسكندرية وكانت الحكومة المصرية قد حظرت إخراج الحيوانات من مصر ولكن سمح لواين بشراء بعض الجمال باذن خاص فاشترى تسعة كان أنضاها ناقة مهرية وخمس منصاري. ولم يذهب الى

الموانىء السورية إذ لم يكن فيها وسائل لنقل الجمال من البر الى السفينة فتوجه الى أزمير فاشترى فيها من الجمال ما اشترى ولكن بأسعار عالية إذ كانت حرب القرم دائرة الرحى والجمال تشترى بالآلوف للشؤون الحربية . ثم زار استانبول وبلاكلافا في القرم حيث أكرمه الضباط الانكليز وأطلعوه على كل ما شاء من أمر الجمال التي كانت معهم .

وقفلت السفينة راجعة بطريق أزمير والاسكندرية وكان فيها عدا الابل أناس استؤجروا من مصر وأزمير ليعتنوا بالجمال ويتعلم منهم الاميركيون . ووصلت الى انديانولا بساحل تكساس في ١٤ من مايو سنة ١٨٥٦ فأنزلت الى البر ٣٣ جملاً وبضعة من الجمالة المستأجرين ، ثم عادت الى البحر المتوسط فعادت سنة ١٨٥٧ بسبعة وأربعين جملاً أخرى .

وسيقت الابل كلها الى « كامب فردي » على نحو ٦٠ ميلاً من سان انطونيو حيث عملت في فتح الطرق ونقل الاوازم العسكرية .

***

وانتدبت وزارة الحربية الملازم « ادوود بيل » Beale ليرود طريقاً من فورت دفايس بنيو مكسيكو الى القسم الجنوبي من كاليفورنيا على محاذاة الخط الخامس والثلاثين في العرض الشمالي . وجهّزته بما يلزم من الرجال والخيل والبغال و ٢٨ جملاً . فاختار بيل فصل الحرّ والجفاف ليمتحن الابل في أصعب الفصول ، فسار الى الباسو على حدود المكسيك ومنها الى البوكركي ثم « فورت دفايس » .

وتخلّف أكثر الجمّالة المستأجرين من الشرق الأدنى عن مرافقة بيل في هذه الرحلة . قيل انهم كرهوا التعرض للأخطار وقيل ان أجورهم لم تدفع لهم حسب الشروط المتفق عليها ولكن بقي معه اثنان هما جورج الاغريقي والحاج علي . وبدأ « بيل » إرتياد الطريق الجديد من « فورت دفايس » في آخر أغسطس سائراً على محاذاة الخط الخامس والثلاثين من العرض الشمالي حتى عبر نهر الكلورادو الفاصل بين أريزونا وكاليفورنيا في ١٨ اكتوبر وكان بذلك ختام مهمته . وقد ثبت الآن أن بيل كان موفقاً في ارتياد الطريق إذ قد مدّت على تخطيطه سكة حديد سانتافي وفتحت طريق السيارات رقم ٦٦

وأعجب بيل بالجمال وامتدح صبرها على العطش وإقتياتها بنبات البادية ومقدرتها على نقل الاحمال الثقيلة . ولكن بعض الجنود ممن كان معه تبرّموا بها خصوصاً لأن الخيل والبغال كانت تجفل منها .

وبعد عبور الكلورادو توجّه بيل بالجمال إلى فورت تاهون في جبال بايكر سفيلد في كاليفورنيا . وقبل أن يصل إلى سان برناردينو أرسل الحاج علي في أثناء الطريق بجملين إلى لوس أنجلس فقطع الحاج ٦٥ ميلاً في ٨ ساعات . ولما وصل إلى ساحة لوس أنجلس نفرت الخيل والبغال وذعرت الأولاد وصار الخبر في القرية فتألب أهلها لرؤية الجملين والجمّالين الغريب الزي . ثم لحق بالملازم « بيل » في المركز العسكري بفورت تاهون ، حيث بقيت الجمال تعمل في النقل والجر والركوب والأميركيون بين معجب ومستحقر حتى بدأت الحرب الأهلية فشغلت الناس عن الجمال كما شغلتهم عن غيرها . ثم باعتها الحكومة إلى بعض التجار فاستخدموها في النقل فكان بعضها ينقل الملح من بعض المناجم في نيفادا وجيء ببعضها إلى سلفركنغ بأريزونا لنقل القضة إلى خليج كاليفورنيا .

***

وأخيراً أُطلقت في الجنوب الغربي من أريزونا لتعيش وتتوالد كحيوان البر ونشأت الخرافات حولها ومن هذه الخرافات ما شاع عند بعض الهنود من إن جملاً تمرّد على إلهة الرعد والبرق فضربه جملاً هو المعروف باسم « كميل باك » أي سنام الجمل بظاهر مدينة فينكس . ومنها خرافة شاعت بين الناس إن جملاً كبيراً عليه راكب مشدود إليه بالسيور كان يرى في الليالي المقمرة ، ولكن الراكب كان ينقص إربًا فإربًا حتى إذا قبض على الجمل لم يكن عليه غير السيور التي كانت تشد الراكب

وقيل إنها تكاثرت في أريزونا بين « يوما » و « طوصان » وكان بعض المسافرين يرونها أحياناً وكان المكاريون والبقّارة يقتلونها لأن حيواناتهم تجفل منها أو لحماية المرعى وما لم يقتل أو يمت منها أمسك فبيع لحدائق الحيوان . قيل أن آخر ما شوهد منها جملان في جهة كوارتسيت سنة ١٩٠٩ .

والشائع عند أهل أريزونا الآن أن الجمال لم تصلح لهذه البلاد لأن موادها غير رملية كبوادي البلاد العربية بل يكثر فيها الحصى الذي يؤذي إخفاف الابل . وقد نقل بعض الكتّاب ان بعض الجمال التي أرسلت الى بيتادا صنعت لها أحذية من الجلد . ولكن بيل لم يذكر ذلك في تقريره بل امتدح غناها عن البعرة وفضلها على البغال والخيل من هذا القبيل .

أما الجمّالة الذين جيء بهم من الشرق الأدنى فالذين خرجوا من خدمة الحكومة الاميركية في سان أنطونيو كما تقدم ، لم أجد ذكراً لهم في الكتب التي اطلعت عليها . وحوديج الأغريقي قتله مكسيكي في شمال اريزونا خلاف بينهما على لعب الورق على قول ، وانتحر في

نيومكسيكو على قرن آخر . واشتهر بكثافة لحيته . ومن غريب ما روي عنه أن هنديًا رماه بنبلة فلم يكد يخدشه لأن لحيته وقته كالدرع لكثافتها .

***

أما « الحاج علي » فعمر طويلاً ويجلّ ذكره مؤرخو اريزونا ويحسبونه من روّاد الحضارة فيها Pioneer . وقد تضاربت الآراء في أصله فلا يعلم هل كان عربيًا أم تركيًا أم اغريقيًا . حادثت ملفرد وزير مدير مكتبة المشترع في اريزونا وصاحب بحث في الحاج علي فقال لي أن « هاي جلي » كان أبوه عربيًا وأمه سبيّة إغريقية غنمها بعض العرب في الغزو . وكان اسمه الاصلي فيلب تادرو أما اسم هاي جُلّي Hi Jolly فلقب اكتسبه في أميركا وهو تحريف « الحاج علي » .

ولما باعت الحكومة إبلها اشتغل الحاج علي دليلاً للجنود في تعقب الهنود المخلين بالامن ومكاريًا ينقل السلع واللوازم الحربية . ولما خرج من خدمة الحكومة عمد الى البحث عن الذهب في اريزونا وشمال المكسيك ثم مات حتف أنفه في بلدة كوارتسيت القريبة من نهر الكلورادو في الجنوب الغربي من اريزونا في ١٦ ديسمبر من سنة ١٩٠٢

***

وسنة ١٩٣٥ اهتم بعض الموظفين في مصلحة الطرق العمومية لولاية اريزونا بقبر « الحاج علي » فأقاموا فوقه نصبًا تذكاريًا بشكل هرم علوه عشرة أقدام فوقه تمثال جمل من النحاس علوه قدمان . وأودع في الهرم في جملة ما أودع قسم من رماد جمل وأوراق الحاج علي وثلاث قطع من النقد الاميركي قيمتها أربعون سنتًا كانت في جيبه لما توفي .

وعلى وجه الهرم لوح من النحاس فيه : —

« المناخ الاخير للحاج علي . ولد في بعض نواحي سورية حوالي سنة ١٨٢٨ . مات في كوارتسيت ديسمبر ١٦ سنة ١٩٠٢ . جاء هذه البلاد في ١٠ من فبراير سنة ١٨٥٦ . جمال — مكار — وظل أكثر من ثلاثين سنة مساعداً أمينًا لحكومة الولايات المتحدة . مصلحة الطرق العمومية لولاية اريزونا سنة ١٩٣٥ . ودفن هذا النصب في يناير من سنة ١٩٣٦ واشترك في حفلة التدشين حاكم أريزونا ونائب عن حاكم كاليفورنيا

ماما اريزونا وربيع نادر